



جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في البلاغة العربية

"السنة أولى ماستر أدب عربي قديم"

إعداد : د. غنية بوحوش

أستاذ محاضر أ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقياس البلاغة العربية

المستوى: أولى ماستر أدب عربي قديم

الأستاذة غنية بوحوش

المحور الثالث: صلة البلاغة العربية بالعلوم الأخرى

" البلاغة العربية وأثرها في الدرس النقدي العربي "

تتداخل كثير من العلوم وتتكامل، وتلتقي حقول معرفية كثيرة، وتتلاقح، ويتفرع بعضها عن بعض، ويستقل بعضها عن بعض، غير أن العلاقة بين البلاغة والنقد، من أغرب وأعقد وأدق العلاقات، إنهما على درجة من القرابة تكاد تبلغ الاتحاد، وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نفصل بينهما، وأن نسجل أسبقية أحدهما على الآخر، بل إنه يتعذر تحديد العلاقة بينهما، أهما أخوان شقيقان ؟ أم أخوان توأمان ؟

فالبلاغة وهي تتدرج في سلم الارتقاء، يوجهها في ذلك روح الناقد، بينما يستعمل النقد آلة البلاغة، في النظر والحكم على النصوص . فللبلاغة حس نقدي، وللنقد توظيف معايير البلاغة . فكل منهما يعطي للآخر ويأخذ منه، وكل منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به ، في علاقة جدلية ، تشبه علاقة الدجاجة والبيضة.

المبحث الأول: تعريف البلاغة والنقد

المطلب الأول : تعريف البلاغة

لغة : البلاغة من مادة (ب ل غ) ، " وبلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى ، وأبلغه هو إبلاغاً وبلغه تبليغا " ¹.

وقد وردت مادة (ب ، ل ، غ) في القرآن الكريم سبعا وسبعين مرة، بصيغ متعددة ، هي:

- صيغة الفعل الماضي مخففا ، أربعاً وعشرين مرة منها:
قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِۦ وَمَن بَلَغَ ﴾ سورة الأنعام من الآية 19 .
- صيغة الفعل الماضي مشددا ، مرة واحدة ، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ سورة المائدة من الآية 67 .
- صيغة الفعل الماضي مزيدا بالهمزة ، أربع مرات ، منها : قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَتَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ سورة الأعراف من الآية 79 .
- صيغة الفعل المضارع مخففا ست عشرة مرة منها:
قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَخْلَقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُۥ ﴾ سورة البقرة من الآية 196 .
- صيغة الفعل المضارع مشددا ، أربع مرات منها: قوله تعالى: ﴿ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ سورة الأعراف من الآية 62.
- صيغة الأمر مشددا ، مزيدا بالتضعيف ، مرة واحدة ، في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ سورة المائدة من الآية 67 .
- صيغة الأمر مزيدا بالهمزة ، مرة واحدة ، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ سورة التوبة من الآية 6 .
- صيغة الفاعل مذكرا ومؤنثا وجمعا ، كل منها ثلاث مرات ، ومنها :

¹ - لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، د ت .، مادة ب ل غ ، ص 346 .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا **بَلِغَ**

الْكَعْبَةِ ﴾ سورة المائدة من الآية 95 .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ **الْبَلِغَةُ** ﴾ سورة الأنعام من الآية 149 .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا **بَلِغِيهِ** إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ سورة النحل من الآية 7 .

- صيغة المبالغة ، مرة واحدة ، في قوله تعالى : ﴿ وَعَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا

بَلِغًا ﴾ سورة النساء من الآية 63 .

- صيغة المصدر ، خمس عشرة مرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ **الْبَلَاغُ** ﴾ سورة آل عمران من الآية 20 .

- صيغة مفعول ، مرة واحدة ، في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ **مَبْلَغُهُمْ** مِنَ الْعَالَمِ ﴾ سورة النجم من الآية 30 .

ووردت مادة بلغ مشددة في السنة النبوية الشريفة ، في قوله صلى الله عليه وسلم :

وفي الحديث : " **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** " ² .

البلاغة اصطلاحاً :

أعطى العلماء للبلاغة تعريفات كثيرة ، منها :

تعريف أبي هلال العسكري :

" البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفس كتمكّنه في نفسك مع صورة

مقبولة ومعرض حسن " ³ .

² _ أخرجه البخاري ، في صحيحه ، رقم 3274 .

تعريف القزويني :

" البلاغة في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته ، فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب " ⁴ .

ويُذكر أن الجاحظ يرى - مستفيدا من كلام غيره - ، أن شرط استحقاق صفة البلاغة ، انعدام الفاصل الزمني بين اللفظ ومعناه ، لدى السامع ، فقال : " قال بعضهم - وهو أحسن ما اجتبيناه ودوّناه - : لا يكون الكلام بمستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " ⁵ .

المطلب الثاني : تعريف النقد

لغة : مصدر من مادة (ن ق د) ، وهو " تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها " ⁶ ، و" نقد الشيء نقدًا نقره ليختبره أو ليميز جيده من رديئه، يُقال : نقد الطائر الفخ ، ونقدت رأسه بإصبعي، ونقد الدّراهم والدّنانير وغيرهما نقدًا وتنقادا ميز جيدها من رديئها ، ويُقال نقد النثر ونقد الشّعْر أظهر ما فيهما من عيب أو حسن، وفُلان ينقد النَّاس يعيهم ويعتابهم ، والحية [نقدت] فلانا لدغته " ⁷ .

اصطلاحاً :

³ - كتاب الصناعتين ، العسكري ، ص 4 .

⁴ - التلخيص ، القزويني .

⁵ - البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج 1 ص 113 .

⁶ - لسان العرب ، ابن منظور ، ج 6 ص 4517 .

⁷ - المعجم الوسيط ، ج 2 ص 944 .

" نظر في علم الجمال ، نظر في المعايير البلاغية التي إن تحققت في أي نص فني ، وحازت إعجاب ذوق الناقد كان الحكم بالجوهر ، وإن اختلت أو تدنّت مستوياتها كان الحكم بالرداءة . ومن هنا كانت مهمة النقد عند العرب القدماء تمييز جيد الشعر من رديئه " ⁸ .

والنقد أحد قسيمي الأدب ، فالأدب قسمان : أحدها إنشائي ، وهو ما ينتجه المؤلفون نثراً أو شعراً ، والآخر وصفي ، وهو ما يكتب حول تلك المنتجات ، إعجاباً أو استهجاناً ⁹ .

المبحث الثاني : أثر البلاغة في النقد

المطلب الأول : طبيعة العلاقة بين البلاغة والنقد

ليُظهر أثر البلاغة في النقد ، لابد من فهم طبيعة العلاقة بينهما ، وهي علاقة من أعجب وأدق العلاقات ، ففي اللحظة التي يتهياً لك أنك أدركتها ، وميزتها تماماً ، تعود لتلبس من جديد ، فالقراءة بينهما شديدة ، لدرجة أنك لا تدري : هل البلاغة بنت النقد ؟ أم أمّه ؟ أم أخته التوأم ؟ وربما هما توأمان متلاصقان ؟

البلاغة بنت النقد :

يرى عبد الملك بومنجل أن البلاغة بنت النقد ، فـ: " إذا كانت البلاغة هي صفة الكلام المبين المقنع المؤثر الذي يتوسل إلى غايته بالجمال ، وكان علم البلاغة هو العلم الذي يبحث في أسرار البلاغة ، فيجمعها من مظانه مما تراكم من خبرات أولي الذوق والعلم بأسرار اللغة وخصائص تركيبها ومذاهب المتكلمين بها في الدلالة على أغراضهم ، فيدونها في قواعد ومعايير ، ويرتبها في فنون وأبواب وفصول ؛ فإنها لا تكون بذلك إلا بنتاً للناقد الأدبي " ¹⁰ .

ويرى أيضاً أن البلاغة قدرةً إبلاغية ، سابقةً للنقد ، أما البلاغة علمًا وقواعد فهو يسبقها .

⁸ - أصول العلاقة بين النقد والبلاغة ، حسين الأسود ، ص 6 . وينظر نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص 1 .

⁹ - محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، ابتسام مرهون الصفار ، ناصر حلاوي ، ص 8

¹⁰ - تأصيل البلاغة ، عبد الملك بومنجل ، ص 13 .

" فالبلاغة بعدّها صفة للكلام البليغ سابقة على النقد، إذ هي موجودة في الكلام قبل أن ينظر فيه الناقد . ولكن النقد سابق على علم البلاغة، إذ علم البلاغة وليد النظر في الكلام البليغ لاكتشاف بلاغته ومعرفة أسبابها؛ وهي أسباب أو قوانين لا تُعرَف دفعةً واحدة، بل يُتدرّج في معرفتها، وتتراكم نتائجها، ويحصل قدرٌ من الإجماع عليها، ثم تُدوّن على أنّها علمٌ يتأسس ويتطوّر وينمو [...] فعلم البلاغة هو إذاً ثمرة نظر الناقد ، وحاصل تأملاته ورصيده اكتشافاته، أو هو، بتعبير آخر، بنكٌ ملحوظاته ومعلوماته ومستنبطاته ومقرّراته " ¹¹ .

البلاغة بنك النقد :

ويرى بعد ذلك عبد الملك بومنجل ، أن البلاغة بعد أن صلحت بنتا للنقد ، تصلح أيضا لتكون بنكا له ، وهي بذلك تصلح أن تكون أمّا يتغذى منها، وكان من قبل أبا لها يغذيها فـ : "علاقة الناقد بالبلاغة هي علاقة ضرورة لا اختيار. علاقة عطاء استلزامي وأخذ ضروري . علاقة شبيهة بعلاقة صاحب المال بالبنك: يضع فيه رصيда معينا لا يزال يضيف إليه ويأخذ منه لحاجاته؛ فما يحصله يضعه فيه، وما يضعه فيه يستثمره في بعض أعماله، وهكذا تستمر علاقة العطاء والأخذ متأثرة بمدى الإضافة ومقدار الأخذ؛ فكذلك الناقد: يكتشف أسرار البلاغة فيستودع ما اكتشف بنكا هو علم البلاغة. ويمارس ألوانا من النقد، فيعتمد إلى البنك الذي أودع فيه ما اكتشف من أسرار وقوانين، فيستثمرها فيما يمارسه من النقد تحليلا للنصوص وتنظيرا للإبداع. وتستمر علاقة الناقد بالبلاغة علاقة عطاء وأخذ متأثرة بمدى الإضافة غير متضررة بمدى الأخذ؛ وهذا هو الفرق الوحيد بين البنك الذي يودع فيه المال والبنك الذي يودع فيه علم البلاغة، إذ المال ينفد بالاستعمال أما العلم فلا ينفد، ولكنه يعجز عن مواكبة المستجد إذا لم يُزوّد بأبواب أخرى من العلم " ¹² .

¹¹ - نفسه ، ص 14 .

¹² - تأصيل البلاغة ، عبد الملك بومنجل ، ص 16 .

ويذكر هنا ، أن من جمال البلاغة وفضلها على النقد ، أنها بنك مفتوح ، قادر على العطاء في كل حين، مستعد لإمداد النقد بجديد الأدوات النقدية ، بما يُكتشف تباعا من أساليب الجودة في الكلام .

البلاغة والنقد توأمان متلازمان :

بعد أن رأينا مع الأستاذ عبد الملك بومنجل أن البلاغة بنت النقد ، ثم بدا لنا أنها يمكن أن تكون أمه أيضا ، ظهر لنا الآن أنه من الممكن جدا أن يكونا ولدا معا ، وكبرا معا ، إذ يتعذر في حالات كثيرة الفصل بينهما موضوعا ومقصدا ، خاصة بعد أن وُجد الإطار العلمي الذي جمع بينهما جمعا ، يظهر فيه استحالة الفصل بين الاثنين ، إذ " صار علم المعاني أهم أركان علم البلاغة وأدخلها في تقويم الكلام، وقد انتظم هذا العلم نظرية هي بلاغية نقدية في آن، جاء بها ناقدٌ تنمحي في أعماله الفواصل بين البلاغة والنقد الأدبي؛ فهو في "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" يمارس مهمة الناقد بامتياز: ينظر ويتأمل، يتذوق ويعلل، يفصل ويحلل، يقارن ويستنبط ويؤصل؛ ولكنه في الوقت ذاته ينجز عملا هو في الصميم من علم البلاغة: يضع القواعد، ويحدد المقاييس، ويكتشف القوانين، ويضرب الأمثلة، ويضع لكل أسلوب مصطلحه مفصلا أشكاله مُدرجا إياه في بابه من أبواب البلاغة؛ فترك بذلك عدةً متكاملة أمكن جمع شقها الأول في "علم البيان" وشقها الثاني في "علم المعاني" ¹³.

ومما تقدم ، فالعلاقة بين البلاغة والنقد علاقة جدلية شبيهة بعلاقة الدجاجة والبيضة ، يكاد يستحيل الجزم بأصالة أحدهما للآخر ، فكل منهما أصل للآخر ، وكل منهما فرع عن الآخر ، وكل منهما يحتاج الآخر ، ويمده بما يحتاج في الوقت نفسه . إنها " علاقة حتمية ،

¹³ - تأصيل البلاغة ، عبد الملك بومنجل ، ص 15 .

تكاملية، تقوم على الجانب الجمالي بين الطرفين، فالبلاغة فنون جمالية، وأساليب بيانية، والنقد تقدير لهذه الفنون وتلك الأساليب¹⁴. غير أنه، وعلى الرغم من التلازم والتقارب الشديد بين البلاغة والنقد، إلا أن ثمة فارق دقيق بينهما¹⁵، فالبلاغة إمداد للمتكلم بفنون الكلام، والنقد حكم عليه، فكأنما البلاغة مدرسة، يفيد منها المتكلم، أساليب الكلام الجيدة، والنقد، مختبر، يكشف إلى أي مدى، أفاد المتكلم من تلك المدرسة.

المطلب الثاني: حاجة النقد للبلاغة وتخطئه من دونها

يبين تعريف النقد، خطورة مهمته، إذ مطلوب منه، أن يمعن النظر في النصوص، ليميز الجيد من الرديء، قال الباقلاني: "إن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب"¹⁶.

وكلما ارتقى الكلام بلاغةً، كلما اشتدت صعوبة نقده، من أجل ذلك تخطئ كثيرون، وضلوا، حينما اجتروا على نقد القرآن الكريم، وهم لا يمتلكون الأدوات، ولا شبه الأدوات، قال الباقلاني في موضوع لاحق: "إذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه ويصعب نقده [...] فكيف لا يتحIRON فيما لا يحيط به علمهم، ولا يتأتى في مقدورهم وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم، ولا أتم بلاغة، ولا أحسن براعة، حتى دهشوا حين ورد عليهم، وولّعت عقولهم، ولم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب الأمثال، والتخصرص عليه، والتوهم فيه، وتقسيمه أقساماً، وجعله عضين"¹⁷.

نعم، لقد ضلت أقلام، وزلت أقدام، وهي تحاول أن تُعمل في القرآن الكريم، آلة نقدية لم تنهياً لذلك أبداً، لتناهي بلاغته، وتناهي قصورها. "فالطاقة الجمالية التي تُلحظ في أي عمل

¹⁴ - أصول العلاقة بين النقد والبلاغة، حسين الأسود، ص 8.

¹⁵ - ينظر أصول العلاقة بين النقد والبلاغة، حسين الأسود، ص 8 - 9.

¹⁶ - إعجاز القرآن، الباقلاني، ص 203.

¹⁷ - نفسه، ص 204.

أدبي تعود في قسم كبير منها إلى فنون البلاغة وحسن تأتيها"¹⁸ ، فكيف بطاقة جمالية هي الأرقى على الإطلاق ؟ وهي جماليات القرآن الكريم.

ولئن تخط العرب في نقد القرآن الكريم زمن التزل ، وهم على ما هم من الفصاحة والبلاغة ، فقد تخط غيرهم من بعدهم من دون فصاحة في ألسنتهم ، ولا بلاغة في كلامهم ، ومنهم أقطاب مدرسة الاستشراق ، ومن تتلمذ عليهم ، أو تبعهم ، من مثل محمد أركون ، ومن دُعي بصاحب الفراغات¹⁹ ، وآخرون ، ممن لا تعنيهم الحقيقة العلمية ، إنما يرومون شهرة ، لم يبلغوها بقدوم في العلم رسخت ، وإنما بالتسور على التراث ، والتشكيك في المقدس .

من أجل ذلك ، وكى لا يكون حكم النقد على الكلام جائرا ، وقوله فيه شططا ، وجب عليه إعمال المقاييس التي توفرها البلاغة . وهنا تظهر حاجة النقد الماسة للبلاغة . " إذ لا يستطيع أحد أن يعرف القيمة الجمالية للشيء إلا إن امتلك أدواقها وتمرس باستعمالها . فالناقد لا يستطيع إعطاء رؤية تقويمية صحيحة للنص الشعري إن لم يكن خبيرا بمواطن الجمال عالمًا بأسرارها ، بل ربما يرى الجميل قبيحا ، لضعفه في تقدير القيم الجمالية أو لقلته علمه ."²⁰ ، ومن غير الممكن استغناء النقد عن البلاغة ، لأنه بذلك يستغني عن خبرات ذوقه وثمرات تأمله في الكلام ، ومن غير الممكن أيضا أن تحل للمناهج النقدية بديلا عن علم البلاغة ، لأن علم البلاغة ليس منهجا يُستبدل إذا ظهر ما هو أفضل منه ، وإنما هو رصيدٌ يتراكم من خبرات جميع أهل الذوق والخبرة أيا تكن مناهجهم في البحث ومذاهبهم في النظر²¹.

¹⁸ - أصول العلاقة بين النقد والبلاغة ، حسين الأسود ، ص 3 .

¹⁹ - هكذا دعاه عبد الرحمن بودرع ورفض التصريح باسمه في متن كتابه ، وهو غالب حسن الشابندر ، كاتب عراقي ، مقيم في السويد ، ذو نزعة لتوحيد الطوائف الشيعية لمواجهة أهل السنة ، " مفكر إسلامي " ! ، يزعم أن لا مرجعية له سوى مرجعية النقد ، من مؤلفاته : " ليس من سيرة الرسول الكريم " ، و " مشكلة تدوين الحديث في عصر النبي " ، ينظر الخطاب القرآني ومناهج التأويل ، عبد الرحمن بودرع ، ص 36 - 37 .

²⁰ - أصول العلاقة بين النقد والبلاغة ، حسين الأسود ، ص 6 .

²¹ - ينظر تأصيل البلاغة ، عبد الملك بومنجل ، ص 17 .

بل إن المناهج النقدية الحديثة جميعها ، لا يمكنها الاستغناء عن البلاغة وعلومها ، فالمناهج النقدية وهي تطلب الكشف عن دلالة النص وجماله ، لا يسعها إلا أن تتوسل لذلك بعلم البلاغة ، فالمنهج البنيوي يحتاج البلاغة ، لأن بنية الأدب لغوية ، أساسا، وعلم المعاني - وهو من علوم البلاغة - ، أتى بكثير من الوصف لهذه البنية المنهج السيميائي يلجأ لعلم البلاغة، لأنه مهمته العبور من اللفظ إلى الدلالة، ومن المعنى إلى معنى المعنى، ومن الدلالة المجازية

ال بسيطة إلى الدلالة الرمزية العميقة؛ وكل ذلك إنما يُستفاد فيه من معطيات علم البلاغة، معاني وبيانا وبديعا.

ويحتاج صاحب التأويل إلى المقدمات الضرورية لفهم الكلام وإدراك طرائقه، ومذاهبه والوعي بأدواته وأساليبه، ثم الانطلاق منها وتأسيسا عليها إلى استثمار علوم شتى وشحن لحد الذكاء، في سبيل تأويل مسئول له من المعقولية سند ومن الموضوعية نصيب؛ وما تلك المقدمات الضرورية إلا المعطيات التي يقدمها علم البلاغة.

أما صاحب المنهج الأسلوبي فما هو إلا بلاغي بزي حديث مهما توسع في التحليل وأبدع في الاصطلاح، لأنه باحث في شئون الأسلوب، وشئون الأسلوب هي الموضوع الأول والأخير لعلم البلاغة²².

وإنه لمن الكبر ، والتنكر للفضل والحق، ومن مجانبة الصواب والبعد عن العلمية والموضوعية، أن يُدعى أن المناهج النقدية قد فتحت أبوابا من العلم تنأى ، بها أشواطا عن علم البلاغة، بإمكانات الفهم والتحليل والوصف ما يُغنيها عن الاستعانة بعلم البلاغة. إن الذي أسس علم البلاغة هم النقاد أنفسهم استثمارا لما خبروه وما استنتجوه. وإن هذا العلم لم يُغلق بعد بل بإمكان النقاد في كل عصر أن يضيفوا إليه زبدة ما استنبطوه من أحكام مجمع عليها ، أو متلقاة بالقبول العريض²³.

²² - تأصيل البلاغة ، عبد الملك بومنجل ، - بشيء يسير جدا من التصرف - ، ص 18 .

²³ - نفسه والصفحة نفسها ، - بشيء يسير جدا من التصرف .

إن دعوى انفصال البلاغة عن النقد ، وغناه عنها ، فضلا على أنها تكبر وجحود ، فهي أيضا ضرب من الحمافة ، إذا كيف يعمد النقاد إلى نقض ما أنفقوا دهرًا في بنائه ، لبنة لبنة .

قال محمد عبد المطلب: " أصبح محتمًا التصدي لتلك الأصوات التي ترتفع حينًا بعد حين بالهجوم على البلاغة القديمة، والعجيب أن معظم هؤلاء المهاجمين إذا احتكموا للدراسة التطبيقية مع الخطاب الأدبي، لا يجدون ما يُسعفهم إلا تلك الأدوات البلاغية القديمة من تشبيه واستعارة وكناية، ومن تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وتعريف وتنكير، ومن سجع وجناس وطباق، وربما كانت الإضافة التي نلاحظها على استعمال هذه الأدوات، هو إخضاعها لمسميات طارئة، توهم بالحدث، كالانحراف والانتهاك والانزياح، ثم إدخالها إلى دوائر الإحصاء العددي، وهي دائرة لم تغب عن القدماء تمامًا، وإن كانت إشاراتهم لها خاطفة، دون أن يعطوها العناية الكافية التي أصبحت لها في الدرس الأسلوبي الحديث"²⁴ .

المطلب الثالث : شواهد أثر البلاغة في النقد

يعد التراث النقدي القديم ، كله ، شاهداً لأثر البلاغة فيه ، فالناظر في كلام العرب شعرا ونثرا ، المبدي رأيته فيه تبعا لذلك ، إنما ينظر بعين بلاغية صرفة ، وبالنظرة ذاتها ، نظر بعضهم في القرآن الكريم ، وهو القمة والمنتهى في البلاغة . وفيما يلي بعض الشواهد ، التي تحتج لأثر البلاغة في النقد :

الشاهد الأول :

²⁴ - البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط2 ، سنة 2007 ، ص 9

سأل رجل أبا عبيدة معمر بن المثنى، عن قوله تعالى: ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [سورة الصافات الآية 65] ²⁵ وإنما يقع الوعد والإيعاد، بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف فأجابه بأن الله تعالى كلم العرب على قدر كلامهم أما سمعت امرئ القيس كيف قال: أتقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال ²⁶.

نلاحظ في هذا الشاهد ، فعلا نقديا مارسه السائل ، بأن استند إلى ما كان أصلا في عرف التشبيه - وهو باب بلاغي - ، وأن يكون بما عرف مثله ، وتأتي الإجابة فعلا نقديا كذلك ، مجيزة للتشبيه بما لم يعرف واقعا ، ولكن له في الخيال مكان ، وفي الأذهان موضع ، مستشهدا ببيت لامرئ القيس ، فـ : " أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة، كأنه أراد المبالغة، ولعله يقول أو يقول المحتج له: معرفة النفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسة، لا سيما قد جاء مثل هذا القرآن وفي الشعر الفصيح : قال الله عز وجل :

﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ، فقال قوم: إن شجرة الزقوم وهي أيضاً الأستن لها صورة منكورة وثمره قبيحة يقال لها: رؤوس الشياطين، وقال قوم: الشياطين الحيات في غير هذا المكان، والأجود الأعراف أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح؛ لما جعل الله عز وجل في قلوب الإنس من بشاعة صور الجن والشياطين، وإن لم يروها عياناً، فخوفنا تعالى بما أعد للعقوبة، وشبهه بما نخاف أن نراه ²⁷.

وهكذا يتبين أن سؤال السائل ، وإجابة أبي عبيدة ، كل منهما كان أداء نقديا رائعا ، سنده وأساسه البلاغة .

الشاهد الثاني :

²⁵ - قال الله تعالى في وصف شجرة الزقوم طعام أهل النار : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كُؤْنَ مِنْهَا فَمَالُؤْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) سورة الصافات الآيات 62 ... 66 .

²⁶ - حياة الحيوان الكبرى ، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الثانية، 1424 هـ ، ج 2 ص 263 .

²⁷ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط 5، 1401 هـ - 1981 م ، ج 1 ص 288 .

"عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ : لِي عَمْرٌ أَنَشْدِنِي لِأَشْعَرِ شِعْرَائِكُمْ ، قُلْتُ : مَنْ هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : زُهَيْرٌ . قُلْتُ وَكَانَ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : كَانَ لَا يَعْاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ وَلَا يَتَّبِعُ وَحْشِيهِ وَلَا يَمْدَحُ الرَّجُلَ إِلَّا بِمَا فِيهِ " ²⁸ .

وفي كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعل نقدي صريح ، فهو عدّ زهيراً بن أبي سلمى ، أشعر شعراء قومه ، مؤسساً حكمه على معايير بلاغية ، وهي ترك المعازلة : (تركيب الكلام بعضه على بعض) ²⁹ ، وعدم معاقبة وحشي الكلام ، مضيفاً قيمة لحظها في شعره وهي الصدق في المدح ، والبعد عن النفاق والمجاملة .

²⁸ - طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي تح محمود محمد شاكر ، دار المدني - جدة ، ج 1 ص

²⁹ - ينظر نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص 32 .